الفصل الثاني
سَرِيَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى نَجْدٍ
وَأَسْرُ ثُمَامَةِ بْنِ أُثَالٍ وَإِسْلامُهُ ﷺ
الاثنين ١٠ من المحرم ٦هـ/ ١ يونيه (حزيران) ٦٢٧م/ ٧ بؤنه ٣٤٣ قبطي

المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى نَجْدٍ

تاريخ السرية:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ إِلْيَاسَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مَحْمُودٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: خَرَجْتُ فِي عَشْرِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنَ الْمُحَرَّمِ، فَغِبْتُ تِسْعَ عَشْرَةَ، وَقَدِمْتُ لِلَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنَ الْمُحَرَّمِ عَلَى رَأْسِ خَمْسَةٍ وَخَمْسِينَ شَهْرًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٤].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل: «كانت العشائر النجدية من أجرأ العناصر البدوية الوثنية على المسلمين؛ لأن النجديين أهل قوة وبأس وعدد غامر، وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة، كان من هذه القبائل النجدية حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة: ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين، فحاصروا أهل المدينة.

ولهذا فإن أول حملة عسكرية وجهها النبي ﷺ لتأديب خصومه بعد انتصاره الساحق في غزة الخندق وبني قريظة، وهي تلك الحملة التي جردها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب (بكر بن كلاب من قبائل نجد العظيمة، قال في معجم قبائل العرب: وهي من قيس عيلان من العدنانية، بلادها واسعة، فيها كثير من الجبال والمياه)، الذين كانوا يقطنون القرطاء (بطن من بني بكر. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ١٧٣)، بناحية ضريَّة (قال ابن بليهد في (صحيح الأخبار): ضرية ـ بالفتح ثم الكسر وياء مشددة قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد)، على مسافة سبع ليال من المدينة.

ففي أوائل شهر المحرم عام ست للهجرة ـ وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة ـ وجَّه النبي ﷺ إلى هؤلاء الأعراب حملة تأديبية بقيادة رئيس حرسه الخاص محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ، وكان عدد قوات هذه الحملة ثلاثين راكبًا فقط.

ويظهر أن النبي ﷺ أمر قائد هذه الحملة أن لا يتعرض لنساء بني كلاب بالسبي إذا ما ظفر بهم في حملته». [صلح الحديبية لباشميل ٢٢-٢٣].

أحداث السرية:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَنَسٍ الظَّفَرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ سَعْدٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مَحْمُودٍ زَادَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ فِي الْحَدِيثِ قَالَا: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا، فِيهِمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، وَسَلَمَةُ بْنُ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ خَزَمَةَ ﷺ إِلَى بَنِي بَكْرِ بْنِ كِلَابٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسِيرَ اللَّيْلَ وَيَكْمُنَ النَّهَارَ، وَأَنْ يَشُنَّ عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ، فَكَانَ مُحَمَّدٌ يَسِيرُ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُ النَّهَارَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّرَبَةِ (موضع بين السليلة والربذة، وقيل: هي فيما بين نخل ومعدن بني سليم. وفاء الوفا ٢/ ٣٢٨) لَقِيَ ظُعُنًا، فَأَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُ مَنْ هُمْ، فَذَهَبَ الرَّسُولُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَوْمٌ مِنْ مُحَارِبٍ، فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُ وَحَلُّوا وَرَوَّحُوا مَاشِيَتَهُمْ، فَأَمْهَلَهُمْ حَتَّى إِذَا ظَعَنُوا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلَ نَفَرًا مِنْهُمْ، وَهَرَبَ سَائِرُهُمْ، فَلَمْ يَطْلُبْ مَنْ هَرَبَ، وَاسْتَاقَ نَعَمًا وَشَاءً، وَلَمْ يَعْرِضْ لِلظُّعُنِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِمَوْضِعٍ يُطْلِعُهُ عَلَى بَنِي بَكْرٍ بَعَثَ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَوْفَى عَلَى الْحَاضِرِ، فَأَقَامَ فَلَمَّا رَوَّحُوا مَاشِيَتَهُمْ وَحَلَبُوا وَعَطَّنُوا (عطنت الإبل: رويت ثم بركت)، جَاءَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فَأَخْبَرَهُ، فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَشَنَّ عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ عَشَرَةً، وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ وَالشَّاءَ، ثم انحدروا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَا أَصْبَحَ حِينَ أَصْبَحَ إِلَّا بِضَرِيَّةَ (قال ابن سعد: إن ضرية على سبع ليال من المدينة. الطبقات ٢/ ٥٦) مَسِيرَةَ لَيْلَةٍ أَوْ لَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ حَدَرْنَا النَّعَمَ، وَخِفْنَا الطَّلَبَ، وَطَرَدْنَا الشَّاءَ أَشَدَّ الطَّرْدِ، فَكَانَتْ تَجْرِي مَعَنَا كَأَنَّهَا الْخَيْلُ، حَتَّى بَلَغْنَا الْعَدَاسَةَ، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا الشَّاءُ بِالرَّبَذَةِ (قرية بنجد من عمل المدينة على ثلاثة أيام منها، وقيل أربعة أيام. وفاء الوفا ٢/ ٢٢٧)، فَخَلَّفْنَاهُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي يَقْصِدُونَ بِهِ، وَطَرَدَ النَّعَمُ فَقُدِمَ بِهِ الْمَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَقُولُ: خَرَجْتُ مِنْ ضَرِيَّةَ، فَمَا رَكِبْتُ خُطْوَةً حَتَّى وَرَدْتُ بَطْنَ نَخْلٍ (مكان على يومين من المدينة. وفاء الوفاء ٢/ ٣٨١)، فَقُدِمَ بِالنَّعَمِ خَمْسِينَ وَمِائَةَ بَعِيرٍ وَالشَّاءِ، وَهِيَ ثَلَاثَةُ آلَافِ شَاةٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا خَمَّسَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ فَضَّ عَلَى أَصْحَابِهِ مَا بَقِيَ، فَعَدَلُوا الْجُزُورَ بِعَشْرٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَأَصَابَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٤-٥٣٥].

أسر ثُمامَة بن أُثَال وإسلامه ﷺ:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» (أي: ما الظن بي أن أفعل بك؟)، فَقَالَ: **عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ [تَقْتُلْنِي] تَقْتُلْ ذَا دَمٍ** (١) **[ذَا دِمٍّ** (أي ذا دمام وحرمة)**]، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،**

---

(١) إن تقتل تقتل ذا دم: اختلفوا في معناه، فقال القاضي عياض في المشارق وأشار إليه في شرح مسلم معناه: إن تقتل تقتل صاحب دم لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله ويدرك قاتله به ثأره، أي لرياسته وفضيلته، وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم، وقال آخرون: معناه تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك في قتله.

فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ [تَقْتُلْنِي] تَقْتُلْ ذَا دَمٍ [ذَا ذِمٍّ]، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ [تَقْتُلْنِي] تَقْتُلْ ذَا دَمٍ [ذَا ذِمٍّ]، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ! وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ (هكذا هو في الأصول أصبوت، وهي لغة، والمشهور أصبأت بالهمز، وعلى الأول جاء قولهم الصباة كقاص وقضاة، والمعنى: أخرجت من دينك)، فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ (قمح) حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. [البخاري في المغازي (٤٣٧٢)، وفي الصلاة (٤٦٢، ٤٦٩)، وفي الخصومات (٢٤٢٣، ٢٤٢٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٧٩)، والسنن الكبرى للنسائي ذكر ما ينقض الوضوء ولا ينقضه، غسل الكافر إذا أسلم (١٩٠)، وصحيح ابن خزيمة في الوضوء (٢٥٥)، والسنن الصغير للبيهقي في السير (٢٨٤٦)، ومسند أحمد ١٥/ ٥١٧ رقم ٩٨٣٣].

وقال الإمام البيهقي: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يُوسُفَ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ قُتَيْبَةَ، كِلَاهُمَا عَنِ اللَّيْثِ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ هَكَذَا، وَخَالَفَهُمَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ الْمَقْبُرِيِّ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِهِ، وَذَكَرَ أَوَّلًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ أَنَّ ثُمَامَةَ بْنَ أُثَالٍ كَانَ رَسُولَ مُسَيْلِمَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَعَا اللهَ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْهُ.

ثُمَّ رُوِيَ عَنِ الْمَقْبُرِيِّ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ مُوسَى بْنِ الْمُفَضَّلِ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدٌ الْمَقْبُرِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ إِسْلَامُ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا اللهَ حِينَ عَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا عَرَضَ لَهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ اللهُ مِنْهُ، وَكَانَ عَرَضَ لَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَأَقْبَلَ ثُمَامَةُ مُعْتَمِرًا وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَتَحَيَّرَ فِيهَا، حَتَّى أُخِذَ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُبِطَ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِ الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟ هَلْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْكَ؟» فَقَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهْ، فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ مَرَّ بِهِ فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟»، فَقَالَ: خَيْرًا يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهْ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَجَعَلْنَا [نحن] الـمَسَاكِينَ نَقُولُ بَيْنَنَا: مَا يَصْنَعُ بِدَمِ ثُمَامَةَ، وَاللهِ لَأَكْلَةٌ مِنْ جَزُورٍ سَمِينَةٍ مِنْ فِدَائِهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دَمِ ثُمَامَةَ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟»، فَقَالَ: خَيْرًا يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَفَوْتُ عَنْكَ يَا ثُمَامُ»، فَخَرَجَ ثُمَامَةُ حَتَّى أَتَى حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَاغْتَسَلَ بِهِ وَتَطَهَّرَ، وَطَهَّرَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ لَقَدْ كُنْتَ وَمَا وَجْهٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، وَلَا دِينٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، وَلَا بَلَدٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، ثُمَّ لَقَدْ أَصْبَحْتُ، وَمَا وَجْهٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، وَلَا دِينٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، وَلَا بَلَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يا رسول الله، إِنِّي كُنْتُ خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا، وَأَنَا عَلَى دِينِ قَوْمِي، فَيَسِّرْنِي [فَبَشِّرْنِي] صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ فِي عُمْرَتِي، فَيَسَّرَهُ [فَبَشَّرَهُ] رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عُمْرَتِهِ وَعَلَّمَهُ، فَخَرَجَ مُعْتَمِرًا.

فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ وَسَمِعَتْهُ قُرَيْشٌ يَتَكَلَّمُ بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ مِنَ الْإِسْلَامِ قَالُوا: صَبَأَ ثُمَامَةُ، فَأَغْضَبُوهُ فَقَالَ: إِنِّي وَاللهِ مَا صَبَوْتُ وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ، وَصَدَّقْتُ مُحَمَّدًا، وَآمَنْتُ بِهِ، وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ ثُمَامَةَ بِيَدِهِ، لَا تَأْتِيكُمْ حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ ـ وَكَانَتْ رِيفَ مَكَّةَ ـ مَا بَقِيتُ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَانْصَرَفَ إِلَى بَلَدِهِ، وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ، حَتَّى جَهَدَتْ قُرَيْشٌ، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ يُخَلِّي [إِلَيْهِمْ] حَمْلَ الطَّعَامِ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. [السنن الكبرى للبيهقي في السير (١٦٥٣٥). حديث صحيح وسنده جيد. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٤٥].

وقال الإمام البيهقي: وَأَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ الْفَقِيهُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو حَامِدِ بْنُ بِلَالٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: حَدَّثَنَا النُّفَيْلِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: أَمَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ يَعْنِي ثُمَامَةَ ـ فَرُبِطَ بِعَمُودٍ مِنْ عَمَدِ الْحُجْرَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِمَعْنَاهُ.

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تُوهِمُ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْحَدِيثِ فِي رِوَايَةِ يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ مِنْ قَوْلِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ شُيُوخِهِ، وَرِوَايَةُ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَمَنْ تَابَعَهُ أَصَحُّ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِهِ وَالَّذِي رُوِيَ فِي حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مِنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ وَغَيْرِهِ فِي إِرَادَةِ فِدَائِهِ يَدُلُّ عَلَى شُهُودِ أَبِي هُرَيْرَةَ ذَلِكَ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ إِنَّمَا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِخَيْبَرَ فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قِصَّةُ ثُمَامَةَ فِيمَا بَيْنَ خَيْبَرَ وَفَتْحِ مَكَّةَ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ: سَلَمَةُ بْنُ الْفَضْلِ الْآدَمِيُّ بِمَكَّةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَاشِمٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ الرَّازِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو ثميلة يَحْيَى بْنُ وَاضِحٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ خَالِدٍ الْحَنَفِيُّ، عَنْ عَلْبَاءَ بْنِ أَحْمَرَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ ابْنَ أُثَالٍ الْحَنَفِيَّ لَـمَّا أُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ أَسِيرٌ خَلَّى سَبِيلَهُ، فَأَسْلَمَ فَلَحِقَ بِمَكَّةَ، يَعْنِي ثُمَّ رَجَعَ فَحَالَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَبَيْنَ الْمِيرَةِ مِنَ الْيَمَامَةِ، حَتَّى أَكَلَتْ قُرَيْشٌ الْعِلْهِزَ (شيء كانوا يتخذونه في سني المجاعة، يخلطون فيه الدم بأوبار الإبل، ثم

يشوونه بالنار ويأكلونه)، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟** قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: **فَقَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ**، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون]. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٨١، وقال الشيخ الصوياني: حسن وسنده ضعيف. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٤٥].

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ عَجْلَانَ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ قَالَ سُفْيَانُ: الَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْهُ عَنِ ابْنِ عَجْلَانَ، لَا أَدْرِي عَمَّنْ سُئِلَ سُفْيَانُ: عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ؟ فَقَالَ ـ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَسَرُوهُ، أَخَذُوهُ، فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِهِ قَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: **إِنْ تَقْتُلْ، تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ، تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تُرِدْ مَالًا، تُعْطَ مَالًا**، قَالَ: فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِهِ قَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: **إِنْ تُنْعِمْ، تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ، تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُرِدِ الْمَالَ، تُعْطَ الْمَالَ**، قَالَ: فَبَدَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَطْلَقَهُ، وَقَذَفَ اللهُ ﷻ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى بِئْرِ الْأَنْصَارِ، فَغَسَلُوهُ، فَأَسْلَمَ، فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ! أَمْسَيْتَ وَإِنَّ وَجْهَكَ كَانَ أَبْغَضَ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَدِينَكَ أَبْغَضَ الدِّينِ إِلَيَّ، وَبَلَدَكَ أَبْغَضَ الْبُلْدَانِ إِلَيَّ، فَأَصْبَحْتَ، وَإِنَّ دِينَكَ أَحَبُّ الْأَدْيَانِ إِلَيَّ، وَوَجْهَكَ أَحَبُّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، لَا يَأْتِي قُرَشِيًّا حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ، حَتَّى قَالَ عُمَرُ: «لَقَدْ كَانَ وَاللهِ، فِي عَيْنِي أَصْغَرَ مِنَ الْخِنْزِيرِ، وَإِنَّهُ فِي عَيْنِي أَعْظَمُ مِنَ الْجَبَلِ، خَلَّى عَنْهُ، فَأَتَى الْيَمَامَةَ، حَبَسَ عَنْهُمْ، فَضَجُّوا وَضَجِرُوا، فَكَتَبُوا: تَأْمُرُ بِالصِّلَةِ؟ قَالَ: وَكَتَبَ إِلَيْهِ»**.

[مسند أحمد ١٢/ ٣١٧ عن أبي هريرة ﷺ رقم ٧٣٦١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده قوي].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ ثُمَامَةَ الْحَنَفِيَّ أُسِرَ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْدُو إِلَيْهِ فَيَقُولُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَيَقُولُ: **إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَمُنَّ تَمُنَّ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تُرِدْ تَمُنَّ نُعْطِكَ مِنْهُ مَا شِئْتَ**، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يُحِبُّونَ الْفِدَاءَ وَيَقُولُونَ: مَا يُصْنَعُ بِقَتْلِ هَذَا؟ فَمَنَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَأَسْلَمَ، فَحَلَّهُ وَبَعَثَ بِهِ إِلَى حَائِطِ أَبِي طَلْحَةَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ فَاغْتَسَلَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُ أَخِيكُمْ**».

[صحيح ابن خزيمة في الوضوء (٢٥٦)، والسنن الصغير للبيهقي (١١١)، ومصنف عبد الرزاق كتاب أهل الكتاب (٩٥٥١)، وكتاب أهل الكتابين (١٩٠١٦)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجَتْ خَيْلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذَتْ رَجُلًا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، لَا يَشْعُرُونَ مَنْ هُوَ حَتَّى أَتَوْا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟**» [قَالُوا: لَا وَاللهِ يا رسول الله،] قَالَ: «**هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ، [هَذَا سَيِّدُ حَنِيفَةَ وَفَارِسُهَا ـ وَكَانَ رَجُلًا عَلِيلًا ـ] أَحْسِنُوا إِسَارَهُ**»، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: «**اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ**»، وَأَمَرَ بِلِقْحَتِهِ (اللقحة: واحدة اللقاح من الإبل، وهي الناقة التي لها لبن) أَنْ يُغْدَى (من الغَدْوَة: المَرَّة من الغُدُوِّ وهو سير أول النهار نَقِيض الرَّواح، وقد غَدا يَغْدُو غُدُوًّا، والغُدْوة بالضم: ما بين صلاة الغَداة وطلوع الشمس. النهاية ٣/ ٣٤٦) عَلَيْهِ بِهَا وَيُرَاحُ (يقال: راح القومُ وتَرَوَّحُوا إذا سارُوا أيَّ وقْت كانَ، وقيل: أصْل الرَّواح أن يكونَ بعد الزوال. النهاية

٢/ ٢٧٣)، فَجَعَلَ لَا يَقَعُ مِنْ ثُمَامَةَ مَوْقِعًا، وَيَأْتِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولُ: «أَسْلِمْ يَا ثُمَامَةُ» [«إِيهًا يَا ثُمَامَةُ»]، فَيَقُولُ: إِيهًا يَا مُحَمَّدُ! إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُرِدْ الْفِدَاءَ فَسَلْ [مَالًا] مَا شِئْتَ، فَمَكَثَ [فَلَبِثَ] مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ [يَلْبَثَ]، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَلَمَّا أَطْلَقُوهُ خَرَجَ حَتَّى أَتَى الْبَقِيعَ [الصَّوْرَيْنِ]، فَتَطَهَّرَ فَأَحْسَنَ طُهُورَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ فَبَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا أَمْسَى جَاؤُوهُ بِمَا كَانُوا يَأْتُونَهُ مِنْ الطَّعَامِ فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا، وَبِاللَّقْحَةِ فَلَمْ يُصِبْ مِنْ حِلَابِهَا إِلَّا يَسِيرًا، فَعَجِبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ: «مِمَّ تَعْجَبُونَ؟ أَمِنْ رَجُلٍ أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ فِي مِعًى [مِعَاءٍ] كَافِرٍ، وَأَكَلَ آخِرَ النَّهَارِ فِي مِعًى [مِعَاءٍ] مُسْلِمٍ، إِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ، وَإِنَّ الْمُسْلِمَ يَأْكُلُ فِي مِعًى [مِعَاءٍ] وَاحِدٍ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٨-٦٣٩، وتاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٣٦-٤٣٧].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَبَلَغَنِي أَنَّهُ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَبَّى، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ يُلَبِّي، فَأَخَذَتْهُ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: لَقَدْ اجْتَرَيْتَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: دَعُوهُ، فَإِنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى الْيَمَامَةِ لِطَعَامِكُمْ، فَخَلُّوهُ، فَقَالَ الْحَنَفِيُّ فِي ذَلِكَ:

وَمِنَّا الَّذِي لَبَّى بِمَكَّةَ مُعْلِنًا ... بِرَغْمِ أَبِي سُفْيَانَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمْ

وَحُدِّثْتُ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أَسْلَمَ: لَقَدْ كَانَ وَجْهُكَ أَبْغَضَ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَلَقَدْ أَصْبَحَ وَهُوَ أَحَبُّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَقَالَ فِي الدِّينِ وَالْبِلَادِ مِثْلَ ذَلِكَ.

ثُمَّ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالُوا: أَصَبَوْتَ يَا ثُمَامُ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُ خَيْرَ الدِّينِ دِينَ مُحَمَّدٍ، وَلَا وَاللهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكُمْ حَبَّةٌ مِنْ الْيَمَامَةِ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْيَمَامَةِ، فَمَنَعَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَى مَكَّةَ شَيْئًا، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّكَ تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا، وَقَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ، وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوَعِ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَمْلِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٩].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِيِّ يُؤْتَى بِهِ ـ قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: فَأَخْبَرَنِي جَعْفَرٌ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، أَصَابَهُ بِنَخْلَةَ فَأَسَرَهُ وَجَاءَ بِهِ ـ ثُمَّ رَجَعَ حَدِيثُ ابْنِ غَزِيَّةَ قَالَ: فَرُبِطَ إِلَى سَارِيَةٍ فِي الْمَسْجِدِ ـ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي حَدِيثِهِ: إِلَى السَّارِيَةِ الَّتِي ارْتَبَطَ إِلَيْهَا أَبُو لُبَابَةَ ـ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَهُ فَقَالَ: «يَا ثُمَامُ، مَا تَظُنُّ أَنِّي فَاعِلٌ بِكَ؟» قَالَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَسَلْ مَالًا تُعْطَهْ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: اللَّهُمَّ أَعَلِّقْ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الْفِدَاءَ، فَوَاللهِ لَأَكْلَةٌ مِنْ لَحْمِ جَزُورٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دَمِ ثُمَامَةَ، ثُمَّ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ رَائِحًا فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ الْأَوَّلَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا قَالَ لَهُ، ثُمَّ أَعَادَ ذَلِكَ الثَّالِثَةَ فَرَدَّ عَلَيْهِ جَوَابَهُ الْأَوَّلَ، فَجَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَطْلَقَهُ، فَخَرَجَ ثُمَامَةُ إِلَى الْمَنَاصِعِ فَاغْتَسَلَ وَرَحَضَ ثَوْبَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ

حَتَّى وَقَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**، ثُمَّ كَتَبَ أَبُو ثُمَامَةَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَرْبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ مَادَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ قِبَلِ الْيَمَامَةِ: **أَمَ وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ وَلَا حَبَّةٌ مِنْ قِبَلِ الْيَمَامَةِ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**، فَأَضَرَّ ذَلِكَ بِأَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى كَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُمْ حَرْبٌ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي ثُمَامَةَ، أَنْ لَا تَقْطَعْ عَنْهُمْ مَوَادَّهُمُ الَّتِي كَانَتْ تَأْتِيهِمْ، فَفَعَلَ». [تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٣٨-٤٣٩].

وقال الإمام ابن شبة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبِيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَأَبُو زُمَيلٍ: أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ أَخَذُوا ثُمَامَةَ وَهُوَ طَلِيقٌ، وَأَحْذُوهُ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَغْزُو بَنِي قُشَيْرٍ، فَجَاؤُوا بِهِ أَسِيرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُوثَقٌ، فَأَمَرَ بِهِ فَسُجِنَ، فَحَبَسَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي السِّجْنِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ فَقَالَ: «**يَا ثُمَامَةُ إِنِّي فَاعِلٌ بِكَ إِحْدَى ثَلَاثٍ، إِنِّي قَاتِلُكَ، أَوْ تَفْدِي نَفْسَكَ، أَوْ نَعْتِقُكَ**»، قَالَ: إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ سَيِّدَ قَوْمِهِ، وَإِنْ تُفَادِي فَلَكَ مَا شِئْتَ، وَإِنْ تَعْتِقْنِي تَعْتِقْ شَاكِرًا، قَالَ: «**فَإِنِّي قَدْ أَعْتَقْتُكَ**» قَالَ: فَأَنَا عَلَى أَيِّ دِينٍ شِئْتُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**».

قَالَ: فَأَتَيْتُ الْمَرْأَةَ الَّتِي كُنْتُ مُوثَقًا عِنْدَهَا، فَقُلْتُ: كَيْفَ الْإِسْلَامُ؟ فَأَمَرَتْ لِي بِصَحْفَةِ مَاءٍ فَاغْتَسَلْتُ، ثُمَّ عَلَّمَتْنِي مَا أَقُولُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَدِمْتُ مَكَّةَ فَقُلْتُ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا تَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ تَمْرَةٌ وَلَا بُرَّةٌ أَبَدًا أَوْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَكَتَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَهُ بِاللهِ وَبِالرَّحِمِ أَنْ لَا يَحْبِسَ الطَّعَامَ عَنْ مَكَّةَ حَرَمِ اللهِ وَأَمْنِهِ، فَقَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فقال: «**يَا ثُمَامَةُ لَا يَثْأَرُ الْمُسْلِمُ بِالْكَافِرِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَمَنْ أَقَرَّ مِنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعَكَ فَانْطَلِقْ إِلَى بَنِي قُشَيْرٍ، وَلَا تُقَاتِلُهُمْ حَتَّى تَدْعُوَهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ بَايَعُوكَ حَرُمَتْ عَلَيْكَ دِمَاؤُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يُبَايِعُوكَ فَقَاتِلْهُمْ**».

فَدَعَا قَوْمَهُ فَأَسْلَمُوا مَعَهُ، ثُمَّ غَزَا بَنِي قُشَيْرٍ فَثَأَرَ بِابْنِهِ. [تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٣٧-٤٣٨].

العرض الأدبي للسرية [صور من جهاد الصحابة ﷺ للخالدي ١١٩-١٣٧]:

مجموعة محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ

تأسر ثمامة بن أُثال الحنفي سيد أهل اليمامة

ثمامة بن أثال يُعد الجيش لغزوة المدينة:

ثمامة بن أثال الحنفي زعيم بني حنيفة، وبنو حنيفة أشهر قبائل بني تميم الذين يقيمون في منطقة نجد شرق الجزيرة العربية.

وكان بنو حنيفة يقيمون في منطقة (اليمامة) المعروفة في نجد، وكان ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، يقر له أهل اليمامة بالسيادة والقيادة والمنزلة والزعامة! وكان ثمامة بن أثال كافرًا معاديًا لرسول الله ﷺ شديد

العداوة له حريصًا على حربه والقضاء عليه، وكان متحالفًا في ذلك مع زعماء قريش في مكة وصلته وثيقة بأبي سفيان زعيم مكة.

وكان بنو حنيفة يزرعون أرضهم في اليمامة قمحًا، وكان ثمامة يزوِّد قريشًا بحاجتهم من القمح كل عام! ولهذا كان تموين أهل مكة من الحب يأتيهم من بني حنيفة في اليمامة.

وكان ثمامة بن أثال يتابع أخبار رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة، وأخبار المعارك التي تدور بينهم وبين قريش، ويتألم لهزيمة حلفائه من قريش في معارك بدر وأُحد والخندق وغيرها، ويرى صعود أمر رسول الله ﷺ، والتمكين للإسلام والمسلمين، فيزعجه ذلك، ويزداد بُغضًا لرسول الله ﷺ، وكرهًا للإسلام والمسلمين، وحرصًا على قتالهم! وبعد معركة (الأحزاب) الفاصلة، التي أدت إلى هزيمة قريش ومَنْ معها من الأحزاب الكافرة، وانتصار المسلمين، ازداد ثمامة بُغضًا للنبي ﷺ وكرهًا للإسلام والمسلمين.

وخشي أن يصل الإسلام إلى قبيلته بني حنيفة في اليمامة، وأن يفكِّر رسول الله ﷺ بغزو بلاده وقتاله.

لذلك صمم هو على غزو المدينة، والقضاء على المسلمين فيها، وصار يعد العدة لذلك، ويجهز جيشًا من بني حنيفة وغيرهم لهذه الغاية، وهذا معناه أن ثمامة بن أثال قد أعلن الحرب على المسلمين، وصار من أعدائهم الذين يظهرون عداوتهم، ويعلنون الحرب عليهم! وعليه أن يتحمل نتائج ذلك؛ لأن هذا معناه أن المسلمين يعلنون الحرب عليه، ويهدرون دمه، وقد يجهزون جيشًا لقتاله في اليمامة، وقد يرسلون من يقتله وسط قومه!

علم رسول الله ﷺ بما يفعله ثمامة بن أثال، وانحيازه إلى جانب أعدائه، وتجهيزه الجيش لقتاله، فدعاء رسول الله ﷺ ربه أن يمكنه منه، وأن يريحه من شره، وقال: اللهم مكني من ثمامة بن أثال! ودعاء الرسول ﷺ مجاب، وإن الله ناصر دينه وعاصم رسوله ﷺ، وسيمكن رسوله ﷺ من ثمامة بحكمته سبحانه وسيهيئ الأسباب لذلك!

توجه مجموعة ابن مسلمة لبني بكر ولثمامة:

في محرم من السنة السادسة للهجرة، كلَّف رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس الأنصاري بالتوجه إلى سفيان بن خالد الهُذلي وقتلِه [1]؛ لأنه كان يعد العدة ويجهز لغزو المدينة، ونجح ابن أنيس ﷺ في ذلك على أرفع مستوى، كما مر معنا قبل قليل!

وفي محرم من السنة نفسها وجَّه رسول الله ﷺ مجموعة مجاهدة من الصحابة نحو ثمامة بن أثال؛ وذلك ليقضي على الخطرين المحدقين بالمدينة، خطر ابن نبيح في منطقة نخلة عند مكة، وخطر ابن أثال في منطقة اليمامة!

---

(١) سبق أن أوردتها بعد غزوة أُحُد، وهو الصواب في تاريخها كما سبق أن رجحته. غريب.

شكَّل رسول الله ﷺ مجموعة مجاهدة، مكونة من ثلاثين مجاهدًا، منهم: محمد بن مسلمة، وعباد بن بشر، وسلمة بن سلامة بن وقش ﭫ، وجعل محمد بن مسلمة ﷺ أميرًا على المجموعة، وأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ أن يتوجه بإخوانه جهة نجد، وأن يؤدب بني بكر بن كلاب، والذين كانوا يقيمون في المنطقة بين مكة ونجد، وكانوا يعلنون العداوة للمسلمين، ويتعرضوا إليهم بالأذى، وأن يصلوا إلى ثمامة بن أثال، ويحاولوا التمكن منه وأسره وإحضاره إلى المدينة!

وأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ بأن يأخذ جانب الحذر، ويحرص على أن لا يعلم الأعداء بهم؛ ولتحقيق ذلك أمره أن يسير في الليل حيث لا يراهم الناس، وأن يكمن بإخوانه في النهار، لئلا يراهم الناس!

ودَّع رسولُ الله ﷺ محمد بن مسلمة وإخوانه المجاهدين، وأوصاهم بتقوى الله، وسار ابن مسلمة ﷺ بإخوانه جهة نجد، قاصدًا بني بكر بن كلاب.

وصل ابن مسلمة ﷺ وإخوانه إلى هدفهم، ولما أشرفوا على مضارب بني بكر أرسل ابن مسلمة ﷺ عبَّاد بن بشر ﷺ ليستطلع الأمر، ويتعرف على الوضع.

راقب عباد بن بشر ﷺ مضارب القوم، ورآهم وقد روحوا ماشيتهم، ورووا إبلهم، وأَووا إلى خيامهم يستريحون، فعاد عباد مسرعًا إلى ابن مسلمة ﭫ يخبره الخبر.

علم ابن مسلمة ﷺ أن الفرصة مناسبة لمهاجمة بني بكر بن كلاب، فأصدر أمره لإخوانه المجاهدين الثلاثين بمهاجمة القوم!

مجموعة ابن مسلمة تهزم بني بكر وتنتظر ثمامة:

وما هي إلا لحظات، حتى فوجئ بنو بكر بالمجاهدين ينقضون عليهم مهاجمين محاربين، ونشبت معركة قصيرة سريعة، نتج عنها مقتل عشرة من بني بكر، وهروب الباقين، مخلِّفين وراءهم ماشيتهم وأنعامهم ودوابهم.

وأمر ابن مسلمة ﷺ إخوانه المجاهدين أن يستاقوا أمامهم الماشية والأنعام، وأن يتوجهوا بها غنيمة نحو المدينة! وبعد أن حقق ابن مسلمة ﷺ المرحلة الأولى من مهمته الجهادية بنجاح وتوفيق من الله، بقي عليه أن يحقق المرحلة الثانية، وهي محاولة التمكن من ثمامة بن أثال.

كان ثمامة وسط قومه بني حنيفة في اليمامة، يمني نفسه بغزو المدينة، واليمامة ما زالت أمام ابن مسلمة وإخوانه! لأن بني بكر المهزومين على الطريق بين اليمامة ومكة.

فكيف يتصرف ابن مسلمة ﷺ! لقد غنموا أعدادًا كثيرة من ماشية وأنعام بني بكر، وسوقها معهم نحو اليمامة مستحيل؛ لأن الرسول ﷺ أمرهم بالحذر، والسير في الليل والكمون في النهار! وهذا لا يتحقق مع وجود الماشية!

هل يبقون الماشية في موقعها لحين عودتهم من اليمامة؟ هل يكلف مجموعة من إخوانه بسوق الماشية إلى المدينة، ويسير هو بمجموعة أخرى نحو ثمامة في اليمامة؟

وبينما كان ابن مسلمة ﷺ يقلب وجوه النظر مع إخوانه، ساق الله لهم ما لم يكن لهم بالحسبان!

ساق لهم ثمامة بن أثال سوقًا وأحضره لهم إحضارًا، وأتى به إليهم!

توجه ثمامة لأداء العمرة والتحالف مع قريش:

ترك ثمامة بن أثال رجاله وجنوده من بني حنيفة وغيرهم في اليمامة، يتأهبون لغزو المدينة، وطلب منهم أن يتريثوا قليلًا، وأن ينتظروه لحين عودته من مكة.

توجه ثمامة بن أثال وحده من اليمامة إلى مكة، بهدف أداء العمرة! ومعلوم أن الكفار في الجاهلية كانوا يتوجهون إلى بيت الله الحرام حاجين أو معتمرين، وهذا ورثوه عن دين إبراهيم عليه السلام.

أراد ثمامة بن أثال أداء العمرة! ولعل هدفه من ذلك أن ينال بركات (الرب)، وتوفيقه فيما هو مُقدم عليه، من غزو رسول الله ﷺ بعد الانتهاء من العمرة! ولعله أراد الاجتماع بزعماء قريش بعد أدائه العمرة، وتنسيق الأمر معهم فيما هو مقدم عليه من غزو المدينة!

المهم أنه غادرَ (اليمامة) وحيدًا متوجهًا إلى مكة!

وهو سيمر في طريقه على مضارب بني بكر بن كلاب؛ لأنهم على الطريق بين اليمامة ومكة.

سار ثمامة بن أثال في طريقه وحيدًا، وهو لا يدري ما الذي ينتظره في الطريق!

مجموعة ابن مسلمة تأسر ثمامة وتأخذه إلى المدينة:

لا يدري ابن أثال أن محمد بن مسلمة ﷺ في الطريق، ومعه ثلاثون من إخوانه المجاهدين! لا يدري أن المجاهدين قضوا على بني بكر، وأقاموا مكانهم فترة من الزمان قبل عودتهم بالماشية إلى المدينة!

ولعل ثمامة بن أثال كان يفكر في المعركة القادمة التي ستكون بينه وبين الرسول ﷺ بعد عودته من العمرة، وكان يمني نفسه بالانتصار فيها، ويتخيل انتصاره وقتله للمسلمين، وأخذه الأسرى منهم.

ووصل إلى مضارب بني بكر بن كلاب! وفوجئ بما يرى.

وجد نفسه في قبضة ابن مسلمة ﷺ وإخوانه المجاهدين رضي الله عنهم!

رأوه قادمًا من بعيد، ولما وصلهم أحاطوا به، وألقوا القبض عليه، ولما تحققوا من هويته فوجؤوا بذلك، وشكروا الله على تدبيره الأمور، إنهم يبحثون عن ثمامة، وها هو يأتيهم الله به! إنهم يفكرون في كيفية الوصول إليه في اليمامة، والتغلب على المعوقات والعقبات، وها هو يحضره الله إليهم بدون جهد!

سبحان الله! الذي يدبر الأمور والأحداث، وفق حكمته سبحانه؛ وليحقق إرادته ﷻ! وما سوقه ثمامة بن أثال إليهم على هذه الصورة المفاجئة، وبهذه الكيفية العجيبة إلا دليل على ذلك!

حمدوا الله وشكروه، على ما أنعم به عليهم.

لقد أمرهم رسول الله ﷺ بأسر ثمامة بن أثال إن تمكنوا منه، وليس قتله وهذه حكمة تظهر لنا فيما بعد!

فوجئ ثمامة بن أثال بالرجال الغرباء يحيطون به، وقال له ابن مسلمة: أنت ثمامة بن أثال، الحمد لله الذي أمكننا منك، وجعلك بين أيدينا بلا عقد ولا عهد ولا ذمة!

قال لهم: من أنتم؟

قالوا: نحن أصحاب رسول الله ﷺ جئنا هنا للقبض عليك! وها أنت في قبضتنا!

لم يصدِّق ثمامة ما يجري! أهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ؟ أنا أعد الجيش لغزو المدينة وقتالهم، وأمني نفسي بذلك بعد فترة؟ وها أنا أقع بين أيديهم وحيدًا، ليس معي جيش! أين أحلامي وخطتي ومواجهتي؟ أين الجيش والمعركة القادمة الفاصلة؟ تبدد كل هذا وتلاشى! وها أنا أسير بيد هؤلاء الذين سيذهبون بي إلى نبيهم وسيقتلني! لقد انتهى كل شيء!

أخذت المجموعة المجاهدة ثمامة بن أثال أسيرًا، وساقوه معهم مخفورًا إلى رسول الله ﷺ واستاقوا معهم ما غنموه من ماشية بني بكر بن كلاب، وعادوا سالمين غانمين مفلحين إلى المدينة!

ولما وصلوا المدينة (خَمَّس) رسول الله ﷺ الغنائم، وقسمها كما أمره الله ﷻ.

ولما رأى عدوه ثمامة أمامه موثوقًا أسيرًا حمد الله، الذي أمكنه منه، ورد كيده إلى نحره، وأبطل خطته.

الرسول ﷺ يربط ثمامة في سارية المسجد النبوي:

أمر رسول الله ﷺ بربط ثمامة بن أثال في عمود من أعمدة المسجد وحبسه فيه!

ثمامة كافرٌ مشرك، ومع هذا أمر ﷺ بربطه في المسجد! أليس هذا الفعل دليلًا على أنه يجوز للكافر أن يدخل في المسجد ويكون فيه إذا دعت الحاجة، أو اقتضت المصلحة ذلك؟ ولعل الرسول ﷺ أَرادَ أَنْ يؤثِّر في ثَمامة، وأَنْ يجعلَه قريبًا من الإسلام؛ ولذلك لم يُسارع إلى قتله، ولو قتَلَه لكانَ مُحِقًّا؛ لأَنَّ ثُمامة يُعِدُّ الجيشَ لقتاله، وقد أَوقعهُ الله بأيدي المجاهدين وهو محاربٌ مهدورُ الدم! ولكنَّ الرسول ﷺ لم يأْمر بقتله، كما أَمَرَ بقتلِ المحارب الآخر سفيانَ بن خالد الهذلي، ولعلَّه أَرادَ أَنْ يكسبَ قبيلةَ بني حنيفة الكبيرة القوية، أَو أَنْ يُحَيِّدَها على الأقل! ولذلك أمر بأَسرِ زعيمها ولم يقتله!

ولماذا ربطه في المسجد؟:

إنه يريدُ أَنْ يريه صلاةَ المسلمين الذين يُبغضُهم ويحاربُهم، ويُعَرِّفَه على دينهم، إنه يعاديهم الآن لأنه لا يعرفُ شيئًا عنهم! ومَنْ جهلَ شيئًا عاداه! ولعلَّ وجودَه في المسجد أَسيرًا مربوطًا يُقرِّبُه من المسلمين!

وكأَنَّ ثُمامةَ كان يتوقعُ أَنْ يسارعَ الرسولُ ﷺ بقتلِه، ولو فعلَ لحقَّ له ذلك؛ ولذلك فوجئ بربطه في عمودِ المسجد! فما معنى هذا؟ هل سيقتلُه رسولُ الله ﷺ بعدَ ذلك؟ أم سيعفو عنه؟ لا يدري ثُمامة شيئًا.

الرسول ﷺ يأمر بالإحسان إلى ثمامة الأَكُول:

تعاملَ رسولُ الله ﷺ مع عدوِّه اللدود ثُمامة الأسير بأَخلاقِ الإسلام، إنه الآن أَسيرٌ عاجزٌ عن التصرف، لا يملكُ لأَمرِ نفسه شيئًا، وإنَّ الإسلامَ يدعو إلى إكرام الأَسير والإحسان إليه!

لذلك أَوصى رسولُ الله ﷺ أَصحابَه بالإحسانِ إلى الأسير، وقال لهم: هذا أَبو أُمامة، ثُمامةُ بنُ أُثال الحنفي، سيدُ بني حنيفة، فأَحسِنوا إساره وأكرموه!

وتلقى الصحابةُ الأَمرَ بالتنفيذ الفوري، فأحسنوا إلى أَسيرِهم عدوِّهم اللَّدود، وأَكرموه غايةَ الإكرام، رغم علمِهم بعداوته! لأَنه الآن أَسيرٌ بين أَيديهم، لا قوة له ولا خطر منه!

كان ثُمامة (أَكولًا) يأكلُ كثيرًا، لا تكفيه وجبةُ واحدٍ ولا اثنين ولا أَكثر!

أَمَرَ ﷺ أَهلَه أَنْ يجمعوا ما عندهم من طعام، وأَنْ يُقدموه للأَسير، فأَكله كُلَّه، فأَمَرَ الصحابةَ أَنْ يقدموا له طعامًا، فأَكَلَه.

فقالوا: إنه لا يكادُ يُبقي شيئًا، ولا يَشبع!

فقال: أَحسِنوا إلى أَسيركم!

فأَحْسَنوا إليه، واستمروا يقدمون له الطعام، وهو يبتلعُ ما يُقَدَّمُ له، ولا يكاد يشبع! ومعلوم أَنَّ طعامَ الصحابة قليل، وهذا الأَسير يحتاج إلى طعامٍ كثير! لكنهم كانوا يُقدِّمون له حاجته من الطعام، لا يَبخلون عليه منه بشيءٍ!

وكان لرسول الله ﷺ ناقةٌ لَقْحَةٌ تَحْلِبُ الحليب، فأمر رسولُ الله ﷺ بأَنْ يسقي أَهلُه ثُمامةَ حليبَ الناقة صباحًا ومساءً! وكان يشربُ ما يُقَدَّمُ له من الحليب!

الحوار بين الرسول ﷺ وثمامة:

وفي اليوم التالي مَرَّ رسولُ الله ﷺ بثمامة المقيَّدِ في المسجد، فقال له: ماذا عندك يا ثُمامة؟

فوجئ ثُمامةُ بالسؤال! وهو ذكيٌّ فطنٌ وليس غبيًّا ساذجًا! لعل توجيهَ هذا السؤال له دليلٌ على أَنَّ الرسولَ ﷺ ليس راغبًا في قتله! وإنما سيتصرفُ معه تصرفًا آخر.

أَجابَ ثُمامةُ على السؤال جوابًا حكيمًا، فقال: عندي خير يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم! وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل، تعط منه ما تشاء!

خَيَّرَ ثمامة ـ بحكمة ـ رسول الله ﷺ في التصرفِ المناسب، وقَدَّمَ له ثلاثَ خصال، أَيَّ خصلةٍ يَختارُها يكونُ محقًّا:

إنْ أَرادَ أَنْ يقتله فليقتله، ولا تثريبَ عليه في ذلك، فهو محقٌّ في قتْلِه؛ لأَنَّ ثُمامةَ هو الذي بدأ بإعلان الحرب على الرسول ﷺ! ولو ظفَر هو به لقتَله، إنه يقتلُ ذا دم لو أَراد ذلك، ويكون قتْلُه جزاء!

وإن لم يرد قتله فهذا كرمٌ منه، وتنازلٌ عن حقِّه في قتله.

إنْ مَنَّ عليه وأطلقَ سراحه، وأعادَه إلى قومه، فهذا تفضُّلٌ وكرمٌ منه، وهو لن ينسى هذه اليد لرسول الله ﷺ، سيبقى يذكرها له بالثناء، وسيشكره عليها، وهو شاكرٌ للفضلِ والكرمِ والمنَّة!

وإن أرادَ إطلاقَ سراحِه مقابلَ مالٍ يدفعُه، وفديةٍ يفتدي نفسَه بها، فليطلبْ من المال ما شاء؛ لأن ثمامة غني وعنده مال كثير، وأي مبلغ من المال يطلبه رسول الله ﷺ منه مقابل إطلاق سراحه فسيأخذه!

وتدل هذه الخصال الثلاثة التي ذكرها ثمامة على رجاحة عقله، وحسن تفكيره.

تركه رسول الله ﷺ مُقيدًا في المسجد، وهو يسرح مع أفكاره وهواجسه.

تأثُّر ثمامة بإحسان المسلمين إليه:

وعاد إليه ﷺ في اليوم التالي، فسأله نفس السؤال: ماذا عندك يا ثمامة؟ أجابه ثمامة قائلًا: ما قلت لك يا محمد! إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل، تعط منه ما تشاء!

وكان ثمامة لاحظ بذكائه أن الرسول ﷺ لا يريد أن يقتله، إذ لو أراد قتله لقتله بالأمس! ولهذا قدم المن في جوابه، بينما قدم بالأمس القتل!

قال بالأمس: إن تقتل تقتل ذا دم وإن تمنن تمنن على شاكر، بينما قال اليوم: إن تمنن تمنن على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم!

فتركه رسول الله ﷺ، ودخل اليوم الثالث!

واصل الصحابة إكرام الأسير، وتقديم الطعام والشراب له، وهو يلتهم معظم ما يُقدَّم له من الطعام، وهم يقدمونه له، لم يبخلوا عليه بشيء منه، حتى لو أدى إلى نقص طعامهم! وأثَّر هذا الإكرام والإحسان في نفس ثمامة، فها هم أعداؤه يحسنون إليه، ويؤثرونه على أنفسهم، مع حاجتهم وخصاصتهم! والذي دعاهم إلى هذا الإحسان والإكرام هو رسولهم الكريم ﷺ وأخلاقهم العالية التي التزمت بدينهم!

كذلك تأثر ثمامة بالصحابة وهم يأتون إلى المسجد لصلاة الجماعة، وتأثر بصلاتهم الخاشعة خلف رسول الله ﷺ.

ولعله راح يُسائل نفسه: ها هم محسنون كرماء، وها هو رسولهم كريم معي، مع أني عدوهم الذي يجمع لهم الجيش لقتالهم، وها هي أخلاقهم وأفعالهم طيبة، فلماذا أعاديهم؟ ألا يمكن أن يكونوا هم على صواب وأن أكون أنا على خطأ؟ ألا يمكن أن يكون دينهم هو الصحيح؟

وصار يفكر كثيرًا في هذه المسائل، وهو يرى الصحابة أمامه، ويأسره كرمهم وإحسانهم، أكثر مما تأسره حبالهم التي تقيد يديه!

وفي اليوم الثالث مر به رسول الله ﷺ، وأعاد طرح السؤال السابق عليه: ماذا عندك يا ثمامة؟

وأعاد ثمامة الجواب نفسه: عندي خير يا محمد، إن تمنن تمنن على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما تشاء.

وكان الرسول ﷺ لاحظ علامات التأثر على كيان ثمامة، وأنه لم يعد على عداوته السابقة للمسلمين، وأنه وعى هذا الدرس الذي مر به جيدًا.

ولو أمر الرسول ﷺ بقتل ثمامة لكان محقًّا؛ لأنه يستحق القتل، بسبب ما قام به من تجهيز الجيش لغزو المدينة، ولكن الرسول ﷺ يريد أن يسامح ويتنازل عن هذا الحق كرمًا منه ليكسبه ويكسب قومه بني حنيفة!

ولو أراد الرسول ﷺ أخذ الفداء منه، وإطلاق سراحه مقابل مال يدفعه، لكان على صواب؛ لأن الله أذن له أن يأخذ الفداء من الأسرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد ﷺ: ٤]، لكنه ما أراد هذا، حتى لا يُساء فهم تصرفه.

الرسول ﷺ يعفو عن ثمامة ويُطلق سراحه:

اختار رسول ﷺ الخيار الثالث: وهو المَنُّ عليه وإطلاق سراحه بدون مقابل!

وذلك ليؤلف قلبه، ويؤلف بذلك قومه، ويكسبهم إلى جانبه، فقد وعده ثمامة أن يشكر له تفضله عليه بإطلاق سراحه: «وإن تمنن تمنن على شاكر».

عندما يطلق سراحه مَنًّا بدون مقابل سيعود إلى قومه شاكرًا شاعرًا مادحًا، سيثني على رسول الله ﷺ والمسلمين، وسيحدِّث قومه عندما يعود إليهم بما أكرمه به المسلمون، وسيؤثِّر هذا المدح والشكر منه في قومه، وينحازون إلى جانب المسلمين، إذن مصلحة المسلمين تقتضي أن يطلق سراحه بدون مقابل!

دخل رسول الله ﷺ المسجد ومعه أصحابه، وقال لثمامة: لقد عفوت عنك يا ثمامة!

ثم قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم: أطلقوا سراحه، ليعود إلى قومه سالمًا!

وأقبل الصحابة على قيود ثمامة ففكوها، وأطلقوا سراحه، ووقف يتحرك بينهم حرًّا طليقًا!

شَكَرَ ثمامة لرسول الله ﷺ فضله وكرمه، وشكر للصحابة إحسانهم إليه، وأخذ متاعه، وخرج من المسجد، وودَّع الرسولَ ﷺ وأصحابه، وغادر المدينة حرًّا مختار.

عودة ثمامة إلى المسجد وإعلان إسلامه:

شيَّع الصحابة ثمامة بن أثال بنظراتهم، وهو يمشي وئيد الخطى، حتى غاب في بساتين المدينة متوجهًا إلى اليمامة.

وما هي إلا فترة قصيرة، حتى فوجؤوا بثمامة نفسه قادمًا إليهم!

ما الذي جاء بك يا ثمامة؟ لقد كنت أسيرًا عند هؤلاء، وأقصى ما يريده الأسير هو المَنُّ عليه بإطلاق سراحه دون مقابل! وهذا ما فعلوه بك وخرجت من المدينة حرًّا مختارًا! فلماذا لم تتابع سيرك إلى اليمامة؟ ولماذا رجعت إليهم؟

وإذا ثمامة قد غيَّر موقفه، فلما غادر بيوتَ المدينة، وصار بين البساتين وأيقن أنه الآن حر التصرف، يفعل ما يشاء، ويختار ما يريد ولا يكرهه أحد على شيء، وجدها فرصة مناسبة لإعلان إسلامه، وهو دخوله في الدين الحق، الذي يدين به هؤلاء الرجال الكرماء المحسنون واتِّباعه هذا النبي الكريم ﷺ.

لذلك بحث ثمامة عن عين ماء وسط النخيل، واغتسل وتطهر وغير ملابسه، ولبس الملابس البيضاء الجميلة، وأحسن هندامه، ورجع إلى المدينة ليلتقي برسول الله ﷺ.

دخل ثمامة المسجد وكان فيه رسول الله ﷺ ومجموعة من الصحابة، فحياهم ثمامة بإلقاء السلام عليهم، وردوا تحيته بأحسن منها، ثم فوجؤوا به وهو يعلنها واضحة صريحة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله!

كَبَّر الصحابة رضي الله عنهم حامدين شاكرين الله، فها هو أبو أمامه ثمامة بن أثال أمامهم، وها هو مسلم معهم، وهو من في قومه زعيم بني حنيفة، وسيد أهل اليمامة، إن إسلامه انتصارٌ كبير للإسلام، ونفع عظيم للمسلمين.

وقام الصحابة رضي الله عنهم إلى أخيهم المسلم ثمامة يعانقونه بحرارة، ويعاملونه بأخوة ومودة ومحبة!

لماذا لم يعلن إسلامه أثناء حبسه؟

سأله أحد إخوانه: يا أبا أمامة! لقد كنتَ مربوطًا في المسجد، وبما أنك كنت مقتنعًا بالإسلام وتريد أن تسلم، فلماذا لم تعلن إسلامك وأنت معنا في المسجد قبل إطلاق سراحك؟ ولماذا انتظرت حتى غادرت المدينة؟

أجابهم أخوهم جوابًا دالًّا على فطنته وحكمته وبُعد نظره: لو أعلنت إسلامي وأنا مُقيَّد أسير، فأخشى أن يُساء تفسير إسلامي، فقد يذهب بعضهم إلى أن إسلامي لم يكن عن قناعة واختيار، وإنما عن إكراه واضطرار، وقد يقولون: أسلم ثمامة لأنه أسير بين أيدي المسلمين، خوف أن يقتلوه، فإسلامه لينفذ نفسه! ولهذا أخَّرت إسلامي إلى حين إطلاق سراحي، وتمتعي بكامل حريتي، ومغادرتي المدينة حرًّا مختارًا!

لقد تأثرت بكم وبإسلامكم منذ اليوم الأول لسجني في المسجد، وأيقنت أن محمدًا ﷺ هو رسول الله فعلًا، وأن دينكم هو الدين الحق، وكنت أتمنى أن يطلق رسول الله ﷺ سراحي، لأُعلن إسلامي، وكم كنتُ أخشى أَنْ يقتلني، وبذلك يحرمني من هذه النعمة! ولكن الله اختار لي الخير، والحمدُ لله رب العالمين!

وتحليلُ ثُمامة رضي الله عنه لطيف، وتبريرُهُ لتأخير إسلامه إلى حين نَيْل حريته رائع، وهذا دليلُ صدقه في إسلامه، وحرصه على حسن تفسير موقفه، وعلمه بأن الإسلام لا يكون بالإكراه، وإنما يكون بالاختيار والقناعة والرضا، وصدق الله القائل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ثم وجه ثمامة ﷺ كلامه إلى رسول الله ﷺ قائلًا: يا رسول الله! والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك! وقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ! يا رسول الله، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، وقد أصبح دينك أحب الدين كله إليَّ! يا رسول الله! والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، وقد أصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ!

يا سبحان الله! كيف شرح صدر ثمامة ﷺ للإسلام، وبذلك تحول إلى إنسان جديد، تحول كرهُه إلى حب، وبغضُه إلى ود، وعداوته إلى أخوة!

بالأمس كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجهز الجيوش للقضاء عليهم، واليوم صار أخًا محبًا لهم، جنديًا لهذا الدين مثلهم.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة].

ثمامة ﷺ يقلل طعامه بعد إسلامه:

أَنِسَ الصحابة بأخيهم الجديد، وفرحوا بإسلامه كثيرًا، وجلسوا معه يحدثونه بأخوة ومودة، ولما حان وقت الصلاة صلى معهم بخشوع.

وجاء وقت الغداء، وهم الآن سيأكلون معه، إنهم يعرفون ثمامة (أكولًا) يُقَدَّم له الكثير من الطعام فيأكله! وقد راعوا هذا عندما قدَّموا له الطعام، فوضعوا بين يديه الكثير من الطعام، والكثير من اللبن! وفي ظنهم أنه لن يُبقي منه شيئًا! ولكن ثمامة ﷺ فاجأهم مفاجئة جديدة! قَدَّم يده إلى الطعام وسمَّى الله، وأكل لقيمات من الطعام، ثم مد يده إلى اللبن وسمَّى الله وشرب منه قليلًا من الشراب، ثم حمد الله ورفع يده عن الطعام!

فوجئ الصحابة بأكل ثمامة ﷺ، ونظروا إلى طعامه وكأنه لم ينقص منه شيء! فاستغربوا، وأخبروا رسول الله ﷺ بذلك!

فقال ﷺ: مم تعجبون؟ تعجبون من رجل أكل في أول النهار في (مِعًى) كافر، وأكل في آخر النهار في (مِعًى) مسلم؟ إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء، وأن المسلم يأكل في (مِعًى) واحد!

و(المِعَى) هو (المُصْران)، مفرد الأمعاء، وهي المصارين!

ولا يُراد من هذا الحديث ظاهره، فلا يملك المسلم مِعى واحدًا فقط، بينما يملك الكافر سبعة أمعاء حقيقية!

إن الجهاز الهضمي واحد لجميع البشر، لا فرق في هذا بين مسلم وكافر، لكل إنسان فم ومريء وبلعوم ومعدة وأمعاء، وعدد الأمعاء الدقيقة والغليظة واحد عند الجميع!

إن المراد من الحديث نهم الكافر للطعام في مقابل قناعة المسلم أمامه، الكافر يعيش ليأكل! ويلتهم الطعام بنهم كبير، ويحرص على أن يحتوي على أكبر كمية ممكنة منه! لأن الأكل عنده هدف بحد ذاته، ولا يؤمن بحياة أخرى غير هذه الحياة، فليحصل على أكبر كمية ممكنة من طعامها وشربها وملذتها وشهواتها، وعندما يأكل الكافر فكأنه يدخل الطعام في سبعة أمعاء!

أما المسلم فإنه يتعامل مع الطعام بقناعة واعتدال، يأخذ منه حاجته، ويكفيه منه لقيمات يقمن صلبه؛ ولهذا يأكل ويشرب بدون إسراف، وهو يطبق عمليًّا قول الله سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

وكأنه بهذه القناعة يأكل في معى واحد!

وهذا ما حصل من أبي أمامة ثُمامة بن أثال ﷺ!

وبعد ما أقام ثُمامةُ ﷺ في المدينة أيامًا، آمنًا مطمئنًّا بين إخوانه المسلمين، حان موعد عودته إلى اليمامة!

ثمامة ﷺ يتوجه إلى العمرة ويجهر بالتلبية الإسلامية:

وقبل أن يغادر المدينة استأذن رسول الله ﷺ، واستشاره قائلًا: يا رسول الله، إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ هل أعتمر أم لا؟ بَشَّره رسول الله ﷺ بالخير والفلاح والجنة، فقد آمن بالحق، ودخل في الإسلام، وحاز بذلك خيري الدنيا والآخرة، ثم أذن له في أداء العمرة!

خرج ثُمامة بن أثال ﷺ من المدينة إلى مكة، مُحْرِمًا بالعمرة، ولا ننسى أن زعماء قريش كانوا حلفاء له، يزورونه ويحالفونه ويؤيدونه! هذا كان في الماضي قبل أن يسلم ثمامة ﷺ! فماذا سيفعل معهم الآن بعدما أسلم!

كان ثمامة ﷺ يلبي طيلة سيره من المدينة إلى مكة!

ووصل مكة وهو مُحرم، ولما دخلها رفع صوته بالتلبية، ليسمع من لم يكن قد سمع: **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك!**

سمع زعماء قريش في مكة تلبيته بصوت مرتفع، وفكروا في مفردات تلبيته إنها ليست كتلبيتهم الجاهلية: **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك! تملكه وما ملك!**

من هذا الذي يلبي تلبية إسلامية؟ من هذا الذي يجهر بها بصوت مرتفع بغير خوف ولا مراعاة لهم؟ إنه حليفهم بالأمس ثمامة بن أثال الحنفي ﷺ!

إذن: ثُمامة قد أسلم، وهو الآن يؤدي مناسك العمرة، ويُسمعهم ما يكرهون من التوحيد وذم الشرك.

ولهذا افتخر أحد شعراء بني حنيفة المسلمين بعد ذلك، مذكرًا بهذا الموقف الإيماني من ثمامة ﷺ:

وَمِنَّا الَّذِي لَبَّى بِمَكَّةَ مُعْلِنًا ... بِرَغْمِ أَبِي سُفْيَانَ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمْ

وبعد ما أدى العمرة اجتمع عليه زعماء قريش، وقالوا له: يا أبا أمامة، لماذا صبوت وغيَّرت دين آبائك الحق واتبعت دين محمد الباطل؟

ثمامة ﷺ يهدد قريشًا بمنع القمح عنهم:

فقال لهم: أنا ما صبوت، ولكني أسلمت، وصدَّقت محمدًا ﷺ، وآمنتُ به، لأني رأيت أني كنت على باطل، وأن الإسلام هو خير دين، فتركت ما كنتُ عليه من الباطل، واتبعت الحق!

غضبوا منه، وهَمُّوا بقتله! وقالوا له: لقد اجترأت علينا، وجهرت بالتلبية بيننا، والله ما فعلها أحد قبلك! ولا اجترأ علينا أحدٌ غيرك!

وهَمُّوا أن يقتلوا حليفهم بالأمس! كانوا راضين عنه محبين له، لما كان مشركًا بالله عابدًا للأصنام، محاربًا لرسول الله ﷺ! أما الآن بعدما أسلم واتبع الحق فقد أبغضوه وكرهوه، وأرادوا قتله! الذي حملهم على هذا هو اتباعهم للباطل وكراهيتهم للحق!

ولكن أحدهم نصحهم بالكف عن قتله، وعدم التعرض له، وقال لهم: يا قوم، كيف تقتلونه وهو حليفكم؟ سيد أهل اليمامة، وأنتم تحتاجون إليه في طعامكم! لأن القمح يأتيكم من قومه بني حنيفة!

فكفوا عنه مكرهين، لئلا ينقطع مدد الطعام عنهم من اليمامة!

وبعدما أدى مناسك العمرة، وفرغ من زيارة البيت الحرام، وقبل أن يغادر مكة، أعلن لهم موقفه الجديد منهم، ذلك الموقف المبني على الإسلام، فقال لهم: انتهى ما بيني وبينكم من تحالف! ووالله الذي نفسي بيده، لا تأتيكم من اليمامة حبة قمح بعد اليوم، إلا بعد أن يأذن فيها رسول الله ﷺ!

الله أكبر! إن ثمامة ﷺ ينطلق في ارتباطه مع الآخرين من الإسلام، ويجهر بالولاء والبراء على أساس العقيدة، بالأمس كان حليفًا لقريش، يحالفهم في حرب رسول الله ﷺ، ومن أجل ذلك كان يزودهم بقمح اليمامة، غذاء وتموينًا لهم!

أما الآن فقد أسلم، والإسلام يطلب منه أن يكون تحالفه وولاؤه لله سبحانه، وحبه لله، وبُغضه لله، فيوالي من آمن بالله، ويعادي من كفر بالله، ويتبرأ من أعداء الله، ولو كانوا أولياءه بالأمس، ويحب أولياء الله، ولو كانوا أعداءه بالأمس!

وهذا الموقف الإيماني الجديد في الولاء والبراء، دليل على صدق إيمانه، وحسن فهمه لهذا الدين!

الرسول ﷺ يأذن لثمامة ﷺ بتزويد قريش بالقمح:

وغادر أبو أمامة ثمامة بن أثال الحنفي ﷺ إلى قومه بني حنيفة، ولما وصلهم أخبرهم بأنه دخل في الإسلام، واتبع الحق، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، واستجاب له كثير منهم، ودخلوا في الإسلام.

ونفَّذ تهديده ضد قريش، فمنع توريد القمح إليهم، فاتصلوا به راجين راغبين، وطلبوا منه تزويدهم بالطعام، فوجههم إلى رسول الله ﷺ، وقال لهم: لا تطلبوا ذلك مني، واطلبوه من رسول الله ﷺ، فما أنا إلا جندي عنده، وإن أذن بذلك فعلت، ونفذت أمره!

فطلب منه رسول الله ﷺ أن يزودهم بالقمح! ففعل! رضي الله عنه وأرضاه! ا.هـ.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٦٨٨-٦٩٠، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٠+ ٧٢٥.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٣٨-٦٣٩، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٣٤-٥٣٥، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٧٤، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٧٨-٨١، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤٣٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٠، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٧٧، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٧/ ٢٥٢-٢٥٣، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٥٧-٢٥٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١١٢-١٢٢.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٩٤ -٢٩٥، السيرة النبوية لرزق الله ٤٦٧ -٤٦٨، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣١١-٣١٣.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٢٢-٢٧، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٨٤-٨٧، فقه السرايا للعيساوي ١٤٣ + ١٥١ -١٥٧، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٣٧-١٥١.

خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد

(١)

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٣٩.

(٢)

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٧٧.

(٣)

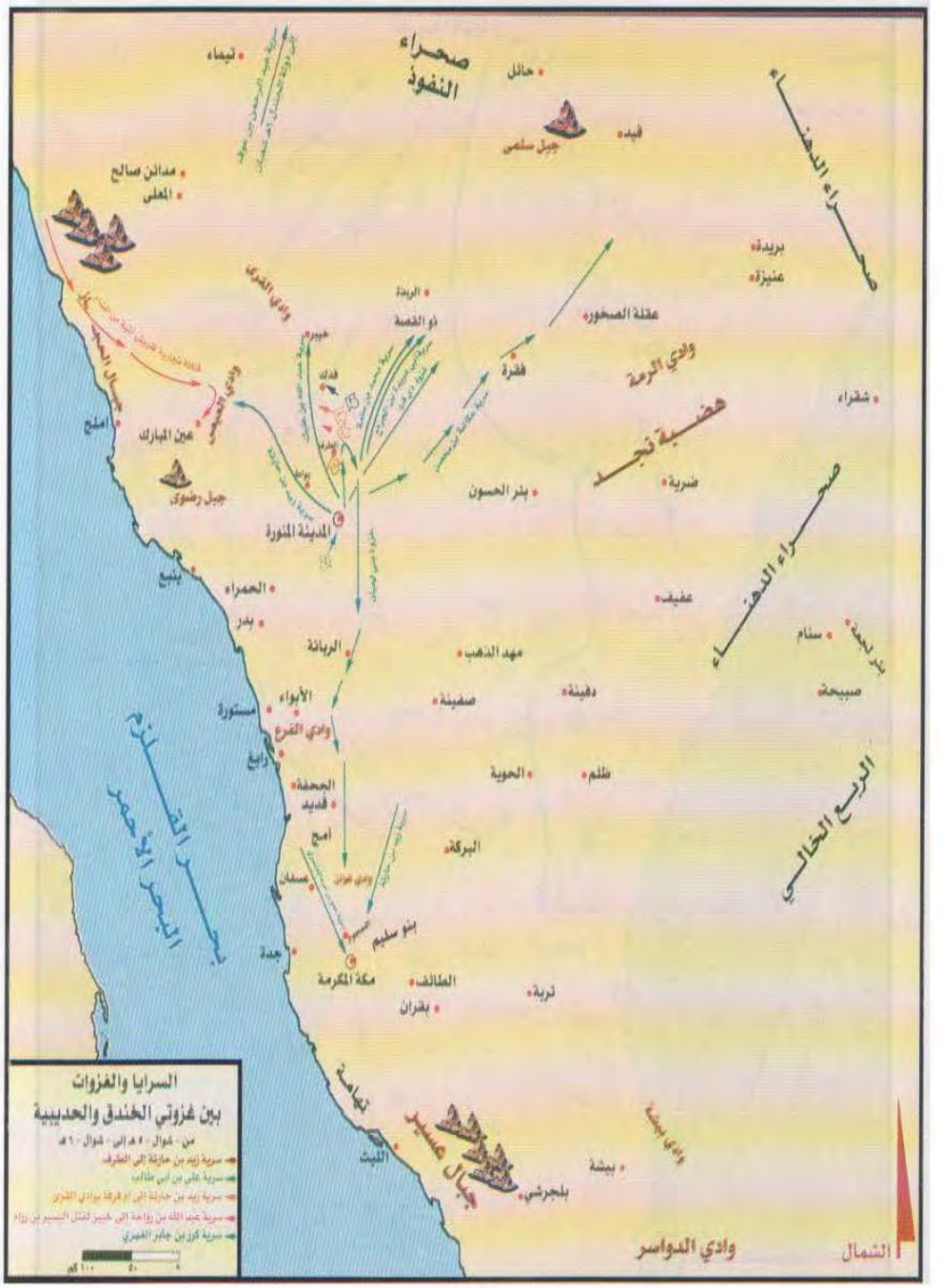

حدائق الأنوار لبحرق ٥٤٣.

(٤)

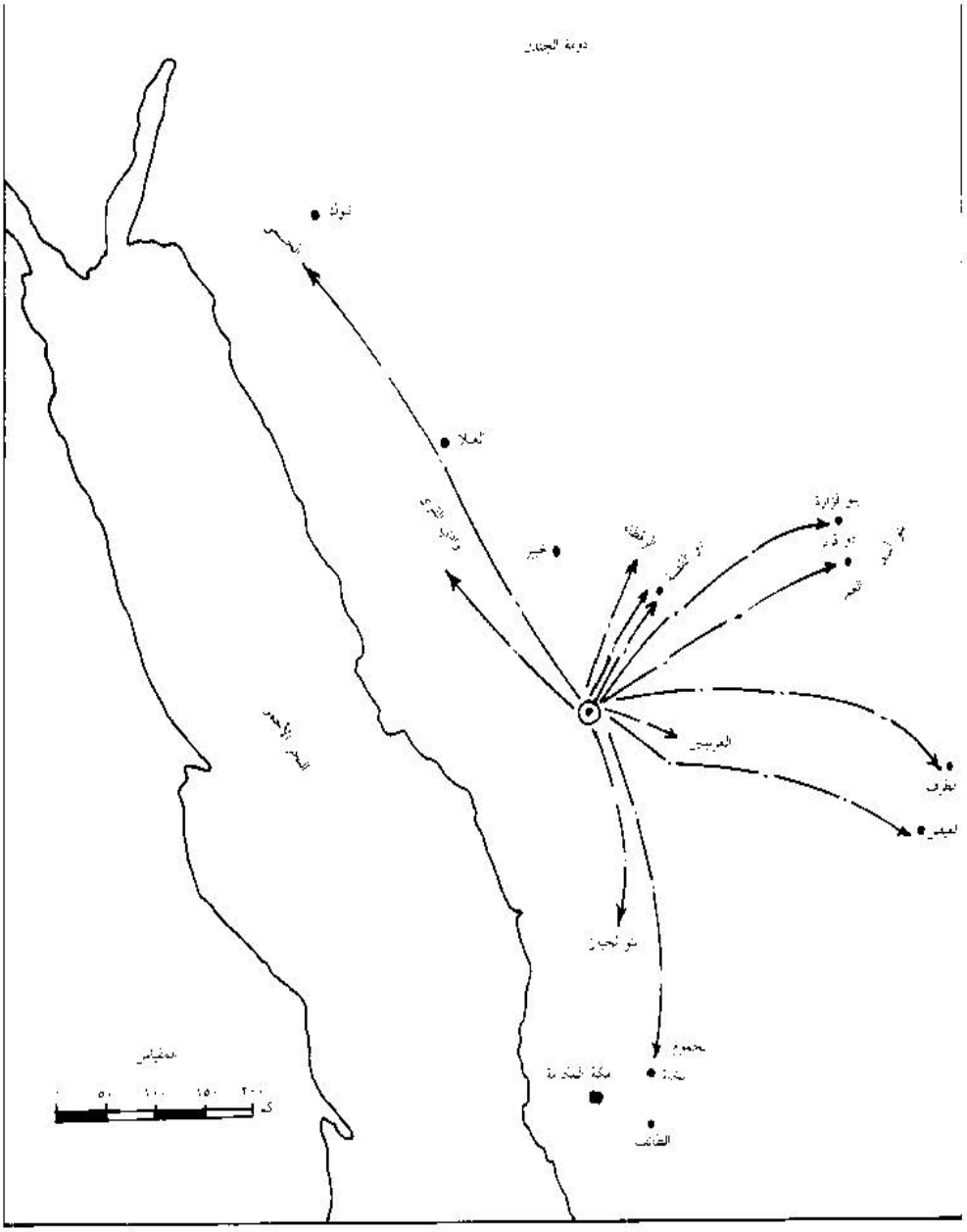

(خريطة رقم ٧)

التحركات العسكرية الإسلامية بين غزوة بني قريظة وغزوة بني المصطلق

قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٩٥.

(٥)

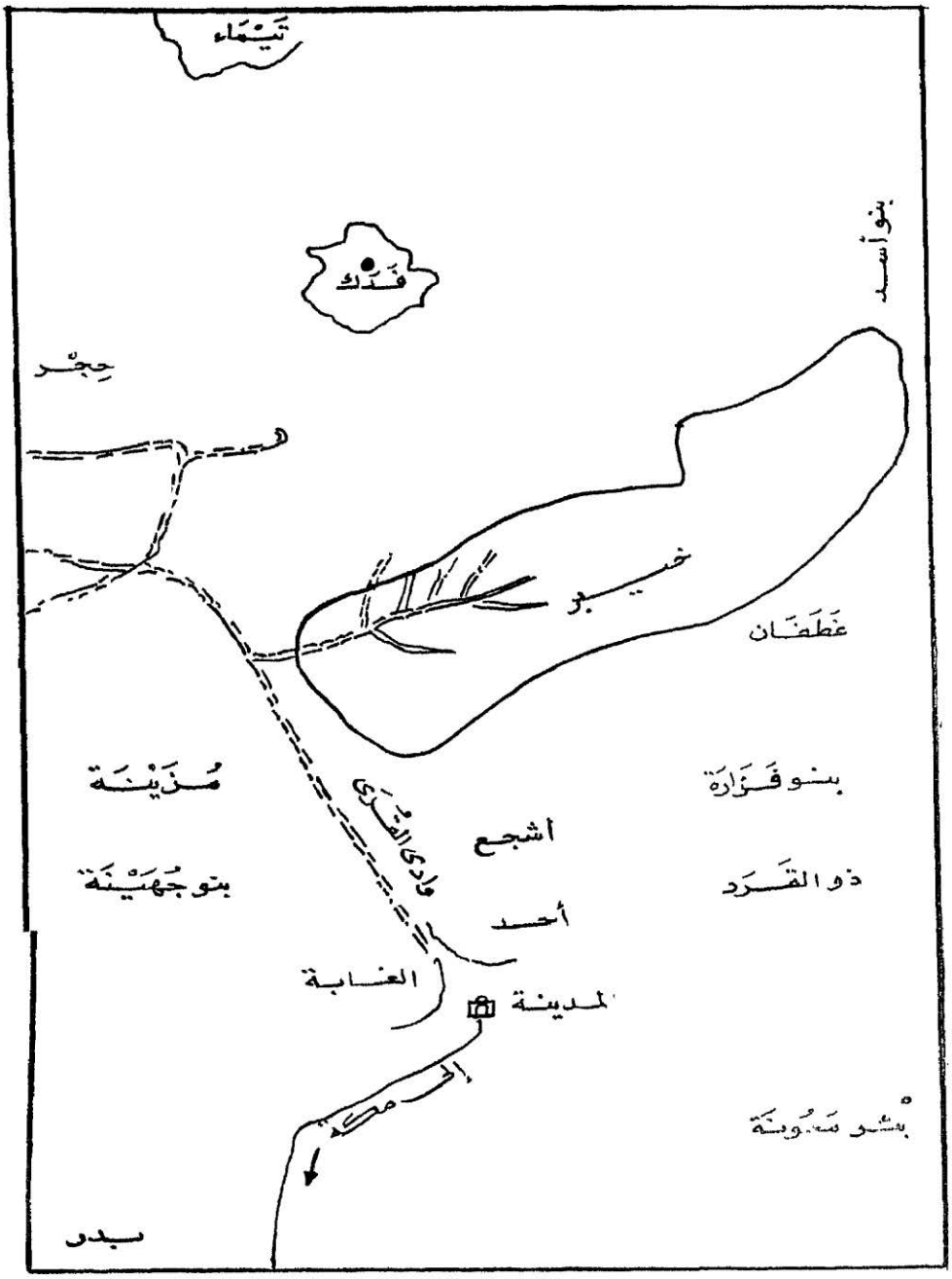

خيبر وموقع القبائل المعادية

محمد ﷺ واليهود لبركات ١٧٥.

(٦)

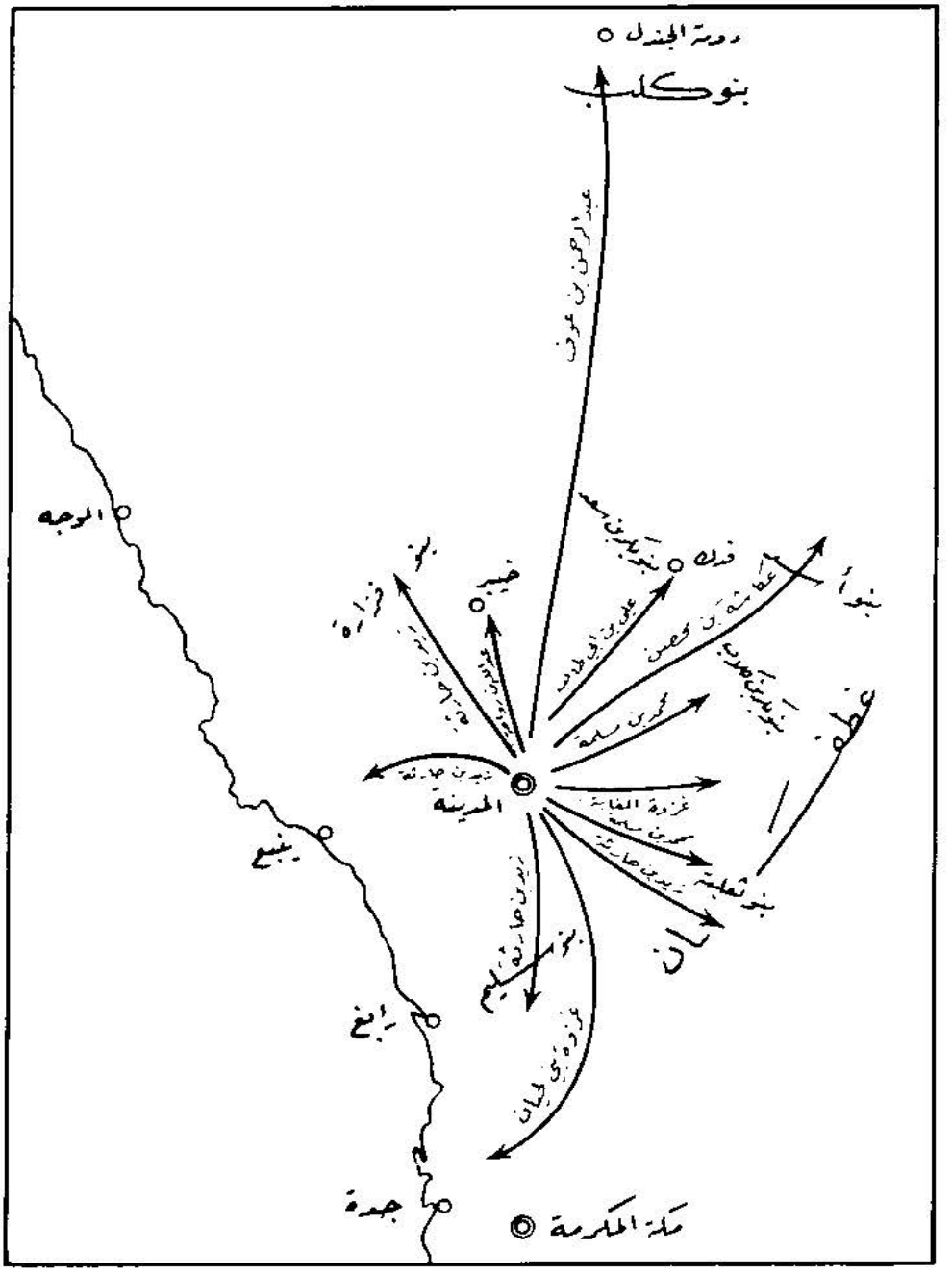

التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٣٠١.